

قراءة في كتاب "الاستعارات التي نحيا بها"

تأليف: جورج لايكوف ومارك جونسن

أ.عمر بن دحمان

جامعة تيزي وزو

صدر للباحثين الأمريكيين "جورج لايكوف" و"مارك جونسن" طبعة جديدة لكتابهما الشهير "الاستعارات التي نحيا بها"¹ (2003)، وهي طبعة جاءت بعد ثلاث وعشرين سنة عن صدور الطبعة الأولى (1980). والملاحظ على هذه الطبعة أنها اشتملت على تذييل طويل نسبيا في آخر الكتاب تضمن جملة من النقاط المهمة.

نقدم في هذا المقال عرضا لهذه النقاط بمحاولة نقل فحواها من اللغة الأصل (الإنجليزية) إلى اللغة العربية، سعيا للتعريف بها خاصة لدى القارئ الذي اطلع مع الكتاب (الاستعارات التي نحيا بها) وتعامل معه في ترجمته العربية² الصادرة سنة 1996. ولعل طول المدة الفاصلة بين صدور الكتاب الذي مثل انقلابا جذريا في إعادة التفكير في الاستعارة و ما استتبعه من أبحاث جادة في مجالات عديدة ذات صلة بموضوعه - الذي لا يزال البحث فيه بكرا عندنا أو لنقل مجهولا عند كثيرين لأسباب ليس هنا مقام الحديث عنها- من شأنه أن يمنح لهذا التذييل قيمة أكبر، وتبعا لذلك نسلط الضوء عليه لاكتشاف ما استجد في موضوع دراسة الاستعارة بما أنه تضمن جملة من التنقيحات والإضافات والتصويبات للكتاب الأصل من جهة وأيضا من خلال إسهاب مؤلفيه في الحديث عن تطورات بعض نظريات الاستعارة الفاعلة وتطبيقاتها في السنوات الأخيرة، ما من شأنه أن يعين الباحث المعني على مواكبة مثل هذا النوع من الأبحاث في الوقت الراهن والاستفادة منها بطبيعة الحال.

إن التفكير الاستعاري حسب المؤلفين أمر عادي، يسود حياتنا العقلية أو الذهنية، سواء الواعية منها أو غير الواعية. وعدًا أن آليات التفكير الاستعاري المستخدمة في نظم الشعر هي نفسها الحاضرة في أكثر تصوراتنا المشتركة أو العامة حول: الزمن، والأحداث، والسببية، والعواطف والأخلاق، والأعمال التجارية على سبيل المثال لا الحصر. بل إن الاستعارات التصويرية امتدت أيضًا في عملية بناء واجهات الكمبيوتر مثل استعارة "سطح المكتب"، "غرف الدردشة"، "دور المزاد العلني"، "حدائق الملاهي" ... وغيرها من التطبيقات.

بما أن جوهر الاستعارة هو الاستنتاج، فإن الاستعارة التصويرية تسمح باستنتاجات من المجالات الحسية - الحركية (مجالات الفضاء والأجسام مثلًا) ليتم استخدامها لاستنباط استنتاجات حول المجالات الأخرى (مثل مجالات "الأحكام الشخصية" المستنتجة وفق تصورات العلاقة الحميمة، والعواطف والعدالة، ...).

لقد تم اكتشاف كل ذلك من خلال العبارات الاستعارية التي نستخدمها والمحددة لكيفية ممارستنا لحياتنا.

أفكار خاطئة مستمرة: تطرق المؤلفان في هذه النقطة لأهم الأفكار المغلوطة عن الاستعارة واقترحا في مقابلها أربعة مداخل رئيسة لفهم طبيعة التفكير الاستعاري وأساسياته، لتقوم مقام وجهات النظر الأربع الخاطئة، التي تكاد ترجع جميعها في التقليد الغربي لأرسطو وحده.

تتمثل المغالطة الأولى: في أن الاستعارة هي مسألة كلمات (أو مسألة لغوية)، وليست تصورات. أما الثانية: فهي أن الاستعارة تتأسس على المشابهة. والثالثة: هي أن جميع تصوراتنا حرفية، وأنه لا شيء يمكن أن يكون استعاريًا. والرابعة: هي أن التفكير العقلي لا يتمظهر بحسب طبيعة فهمنا وأجسادنا، وطبيعة أدمغتنا.

وحسب المؤلفين فقد برهنت مزيد من البحوث اللاحقة لهذا الكتاب بشكل قطعي على أن جميع وجهات النظر الأربع خاطئة.

فبخصوص المغالطة الأولى، فإن محل الاستعارة هو في التصورات وليس في الكلمات. أما الثانية، فالاستعارة بصفة عامة لا تتأسس على المشابهة، وإنما تتأسس عادة عبر علاقات بين المجالات في تجربتنا والتي تؤدي إلى إدراك التشابهات بين مجالين اثنين من خلال الاستعارة. مثلاً، يمكن التماهي في استعمال استعارة ما إلى إنشاء تشابهات مدركة، كما هو الحال مثلاً عندما نرى الحب كعلاقة شراكة. فالتصور الاستعاري للحب من حيث أنه علاقة شراكة يخفق عندما لا نقسم المسؤوليات والمنافع بين القطبين بالتساوي.

بالنسبة للمغالطة الثالثة، فحتى تصوراتنا الأعمق والأكثر ثباتاً - مثل: الزمن، والأحداث، والسببية، والأخلاق والعقل في حد ذاته - تفهم وتفسر عن طريق استعارات متعددة. ففي كل حالة يفسر مجال تصوري (الزمن مثلاً) بعبارات البنية التصويرية لمجال آخر (الفضاء مثلاً).

أما المغالطة الرابعة، فإن نسقية الاستعارات التصويرية ليست اعتباطية أو هي مصادفات تاريخية فقط إنها تتمظهر إلى حد كبير من الطبيعة المشتركة لأجسادنا والطرق المشتركة التي نشغل بها جميعاً في حياتنا اليومية.

مع ذلك، وعلى الرغم من كل البراهين على انتشار الاستعارة التصويرية، فإن هذه الافتراضات الخاطئة قد طال أمدها، ليس فقط حول الاستعارة، بل حول المعنى بصفة عامة، إنها مستمرة بعزم وقد عمّرت طويلاً، وكان لبداية وجهات النظر الفلسفية الضاربة بجذورها العميقة في التاريخ أن حجبت العديد من القراء عن ملاحظة أيّ من البراهين المثبتة للعكس.

إن العقبة الوحيدة الأكبر - حسب المؤلفين - أمام استيعاب النتائج التي توصلنا إليها هي في رفض التسليم أو الاعتراف بالطبيعة التصويرية للاستعارة. ففكرة أن الاستعارات ليست سوى عبارات لغوية أو مجرد مسألة كلمات، هي مغالطة شائعة أبقت العديد من القراء على نحو ما لا يأبهون بفكرة أننا نفكر استعارياً. فالمغالطة هي أن ننظر إلى الاستعارة من حيث هي إحدى الطرق التي نتحدث بها وليست متعلقة بعملية بناء التصورات والاستنتاجات.

إن التصدي لهذه النظرة يمثل في الكم الهائل من البراهين التجريبية المتوصل إليها عبر العديد من الدراسات التي كشفت عن الدور المركزي للاستعارة في التفكير المجرد. وليس من المستغرب أن يبرز أحد ما من ذوي النزعة التقليدية ويستمر في إنكار هذه البراهين أو تجاهلها، وحتى لو قبلها، فذلك يتطلب تعديلات واسعة للطريقة التي يفهم بها، ليس الاستعارة فحسب، وإنما طبيعة التصور والمعنى واللغة والمعرفة والصدق أيضا.

إثبات الاستعارة التصورية: يرى المؤلفان أنه من الأهمية بمكان أن ندرك أن أسئلة حول طبيعة المعنى وبناء التصورات والمنطق واللغة، هي مسائل تتطلب دراسة تجريبية، بل لا يمكن للإجابة أن تكون كافية لمجرد التفلسف بداهة. كما أن طبيعة الاستعارة ليست مسألة تعريف أو تحديد، إنما هي مسألة تتعلق بطبيعة المعرفة أو الإدراك.

ويتساءل المؤلفان: هل نحن نستخدم بطريقة نسقية أنماطا من الاستنتاج من مجال تصوري لاستنتاج مجال تصوري آخر؟ ويجيبان بأن البرهان التجريبي يجب أن "نعم". وهذه الظاهرة هي ما يسمى بالاستعارة التصورية³. وهذه التوافقات النسقية عبر المجالات هي ما يسمى بالترابطات الاستعارية⁴.

يقود هذا الجواب إلى سؤال تجريبي آخر: هل أن الترابطات الاستعارية محض تجريد وتواضع؟ والجواب التجريبي عنه هو "لا"، إنها محددة ومقيدة بواسطة تجاربنا أو خبراتنا الجسدية في العالم، حيث يتعالق المجالان التصوريان معا وبالتالي يؤسسان لترابطات بين مجال وآخر.

وأخيرا، ثمة سؤال مماثل حول طبيعة اللغة: هل أن كل العبارات العادية (المألوفة) والوضعية، تشمل اللغة الحرفية؟ أو هل تستطيع العبارات اللغوية العادية اليومية أن تكون استعارية؟ الجواب يكون تجريبيا أيضا: إن الجانب الأكبر من اللغة اليومية والعادية هو استعاري. والمعاني الاستعارية ترد بواسطة الترابطات الاستعارية التصورية التي تنشأ في نهاية المطاف من التعالقات المتبادلة في تجربتنا المتجسدة.

باختصار، إن الاستعارة هي ظاهرة طبيعية. والاستعارة التصويرية هي جزء طبيعي من الفكر البشري، والاستعارة اللغوية ما هي إلا جزء طبيعي من اللغة البشرية. ولعلنا نتساءل أيضا: ما طبيعة هذه الاستعارات التي نملك؟ وما الذي نعنيه أنها تعتمد على طبيعة أجسادنا وتفاعلاتنا في محيطنا الفيزيائي وممارساتنا الاجتماعية والثقافية؟.

إن كل سؤال حول طبيعة الاستعارة التصويرية ودورها في الفكر واللغة هما مسألة تجريبية. وما نحتاج إليه هو مزيد من البحث التجريبي الذي يتلمس جمع البراهين وتراكمها من خلال استخدام مختلف الأساليب التجريبية للتحري. إن أساليب متعددة في سبيل ذلك، مع الافتراضات المنهجية المختلفة، قد استخدمت على نحو فاعل حتى هذا التاريخ. هذا وقد سمح جمع البراهين للباحثين بتفادي ما يمكن أن تمليه بداهة افتراضات منهج واحد بعينه (لايكوف وجونسون 1999 ، الفصل 6)⁵.

في سنة 1980 كان لدينا أدلة على نظرية الاستعارة التصويرية انطلاقا من مجالين اثنين فقط من مجالات البحث، هما :

- نسقية تعدد المعاني : في هذا المجال من البحث المتعلق بالجوانب المعجمية للكلمات، ليس فقط تلك التي لها معان حرفية في المجال المحسوس ولكن ما لها معان نسقية متصلة بالمجالات المجردة أيضا. مثلا: فوق وأسفل وارتفاع، وانخفاض وعلو وانحدار ... ، لا تنتج فقط عن "العمودية" ولكن أيضا عن "الكمية". وبالتالي، فإن الاستعارة التصويرية "أكثر أعلى" أو فوق تفسر لماذا نستعمل كلمة "ارتفع" بمعانٍ متعددة، لتعني كلا من الزيادة في الارتفاع، والزيادة في الكمية. فالاستعارة التصويرية تقدم تفسيراً لنسقية تعدد المعاني وبالمقابل، فإن نسقية تعدد المعاني تقدم دليلاً على وجود الاستعارة.

- تعميم أنماط الاستنتاج : من النتائج الأساسية المطروحة هنا أن عملية استنتاج المجالات المجردة تستخدم منطق تجريبتنا الحسية- الحركية. مثلا، إذا ارتفع شيء ما فيزيائيا، يصبح أعلى مما كان عليه من قبل. وإذا "ارتفع" ثمن

شيء ما (استعاريا)، إذن هو "أعلى" (استعاريا) مما كان عليه من قبل. فاستعارة "أكثر أعلى" تربط مخطط استنتاج الارتفاع الفيزيائي بمخطط استنتاج الأسعار. عن طريق افتراض هذه الاستعارة، يمكننا أن نرى أن نمطي الاستنتاج المختلفين بجلاء هما في الواقع الشيء نفسه. وعلاوة على ذلك، ومع افتراض أن الاستعارة الأحادية "أكثر أعلى" تربط العمودية بالكمية، فإنه يمكننا عدّ الاستخدام متعدد المعاني للكلمات وتعميم الاستنتاجات هما على حد سواء. بعبارة أخرى، لقد توافر لدينا مصدران - تعدد المعاني والاستنتاج - للبرهنة على هذه الاستعارة التصويرية.

تطورات في نظرية الاستعارة: يرى المؤلفان في هذه النقطة أن نظرية الاستعارة تطورت وتعمقت كثيرا على مر السنوات. وكبر الدليل على وجود الاستعارة التصويرية وانتشارها، كما أنه أمدنا بصورة أكثر وضوحا حول الكيفية التي تبين بها الاستعارة تفكيرنا (أو فكرنا).

لم يكن لدى المؤلفين -حسبها- في البداية إلا افتراضات بأن الاستعارات التصويرية متأصلة في تجربتنا الجسدية. وفي أوائل الثمانينات، أظهرت أعمال لايفوف، وكوفيتش Kovecses (1987؛ 1990، 1986) أن نسق استعارات الغضب نشأت عبر اللغات والثقافات من فيسيولوجية الغضب ذاته. وبحلول أوائل التسعينات، تم اكتشاف مستوى جديد من تحليل الاستعارة الذي اصطلح عليه بالتحليل المعمق⁶. حيث اتفق الباحثون على أن معظم الأفكار الأساسية - ليس فقط حول الزمن، ولكن أيضا حول الأحداث، والسببية والأخلاق، والنفس،... - تبين بصفة تامة بواسطة أنسقة محكمة من الاستعارات التصويرية. حتى التصورات الأساسية للسببية المستخدمة في العلوم الطبيعية والاجتماعية هي في المقام الأول تتركب من نسق مكون تقريبا من أربع وعشرين من الاستعارات الواضحة، كل واحدة منها ومنطقها السببي الخاص بها (لايفوف وجونسون 1999، الفصل 11). وبالتالي، فالسببية يمكن بناء تصورها بعبارات متعددة، منها ما تقرضه "حركة من موضع لموضع جديد" (كما في

عبارة "التطورات العلمية دفعت بنا إلى العصر الرقمي"، ومنها ما يفرضه الأخذ والعطاء بين الأشياء (كما في عبارة "هذه الفيتامينات ستعطيك طاقة")، و منها ما تفرضه الارتباطات بين الأشياء (يرتبط حدوث السرطان باستخدام المبيدات)، ومنها ما تفرضه الحركة على طول المسار أو الطريق (مثل "إن الصين تسير على الطريق نحو الديمقراطية ، بعد أن استفادت من تزفيت الرأسمالية").

تركيب الاستعارة: من الدراسات المهمة في هذا المجال يذكر المؤلفان العمل المشترك للايكوف وتيرنر بعنوان More Than Cool Reason (1989) الذي اجتهدا فيه من أجل تحليل عميق لاستعارات النصوص الشعرية والأدبية المعقدة. وكشف التحليل تشريحا لعمل الخيال تمثل في أن: الأفكار الاستعارية الجديدة - وهي طرق جديدة لتنظيم التجربة وفهمها فهما- تنشأ من خلال إدماج مجموعة من الاستعارات التصويرية البسيطة من أجل تشكيل الاستعارات المعقدة.

ليس الابتكار والجدة (في الأدب) أمورا خارقة، فهما لا يأتيان من العدم. ولكن يتم بناؤهما باستخدام أدوات التفكير الاستعاري اليومي، مثل الآليات التصويرية الاعتيادية. مثلا، يستخدم شكسبير في السوناتة 73 ثلاث استعارات لانقضاء العمر: اليوم والسنة والنار. لاحظ لايكوف وتيرنر أن هذه الاستعارات المركبة تتكون من الاستعارات الأكثر قاعدية التالية : الحياة نور، والموت ظلام، الحياة حرارة، والموت برد، العمر حلقة تزداد وتتضاءل. الأيام والسنوات والنار، جميعها تتضمن حلقة التضائل، الضوء والحرارة من خلال ازديادهما والظلام والبرد من خلال تضائلهما.

إضافة إلى هذا، وجد لايكوف وتيرنر حالات التركيبات المتضمنة كلاً من الاستعارة والكناية. وكمثال على ذلك الصورة الكلاسيكية "حاصد الأرواح" حيث يوجد مثل هذا التركيب. لفظة "حاصد" تتأسس على استعارة "الناس نباتات" : فمثلا يقطع الحاصد سنابل القمح بمنجله قبل أن تنقضي دورة حياتها، كذلك يأتي حاصد الأرواح بمنجله كإشارة إلى الوفاة المبكرة. استعارة

"الموت رحيل" هي أيضا جزء من أسطورة حاصد الأرواح. حسب الأسطورة، يأتي الحاصد إلى المنزل ليرافقه الشخص المتوفى.

تتأسس صورة الحاصد أيضا على تصورين كنائيين. يأخذ الحاصد شكل هيكل عظمي، أي شكل الجسد بعد تحلله، وهو الشكل الذي يرمز استعاريا إلى الموت. الحاصد أيضا يرتدي قلنسوة، وهي من ألبسة الرهبان الذين يشرفون على الجنازات وهكذا أصبحت صورة الحاصد صورة شعبية. كما يملك الحاصد في الأسطورة صفة السيطرة، إنه المشرف على رحيل المتوفى من هذه الحياة، وبالتالي فإن أسطورة حاصد الأرواح هي نتيجة استعارتين وكنائيتين، بعد أن وضعت جميعا جنبا إلى جنب بدقة.

وهكذا أظهر لايكوف و تيرنر بالتفصيل كيف أن التصورات الاستعارية والكنائية يمكن أن تصلحا معا لتشكيل تأليفات معقدة أو مركبة وجديدة.

استعارات للاستعارة⁷ : يرى المؤلفان أن كل نظرية علمية يشيدها العلماء لابد أن تستخدم أدوات العقل البشري بالضرورة. وتعد الاستعارة التصويرية واحدة من تلك الأدوات. وعندما يكون الموضوع العلمي المعني هو الاستعارة نفسها، فإنه ينبغي ألا نستغرب من استفادة مثل هذا المشروع من الاستعارة نفسها، كما تتجسد في الذهن، لبناء الفهم العلمي لتصور "الاستعارة".

لقد جاءت استعارتنا الأولى للاستعارة التصويرية من الرياضيات. إننا نرى الاستعارات التصويرية بداية كترابطات بالمعنى الرياضي، أي ترابطات بين المجالات التصويرية. هذه الاستعارة أثبتت جدواها من عدة نواح، فهي دقيقة ومحددة بالضبط والتوافقات تكون نسقية. كما أنها تسمح باستخدام المجال المصدر من أجل استنباط أنماط استنتاج المجال الهدف. وأخيرا، فإنها تسمح بإجراء ترابطات جزئية. وباختصار، عدت الرياضيات ذات قيمة ابتدائية جيدة.

ومع ذلك، فقد تبين أن استعارة الترابطات الرياضية غير كافية في مجال هام. إذ إنها لا تسهم في إنشاء كيانات الهدف، في حين أن الاستعارات التصويرية غالبا ما تفعل ذلك. فالزمن مثلا (كهدف)، ليس بالضرورة أن يكون

"منفعة" وليس بالضرورة أن يكون "موردا". إن كثيرا من الثقافات في مختلف أنحاء العالم يعيش أصحابها حياتهم ببساطة، من دون أن يقلقوا بشأن ما إذا كانوا يستخدمون وقتهم بكفاءة. في المقابل تصور الثقافات الأخرى الزمن استعاريا كما لو كان موردا محدودا. إن استعارة "الزمن مال" تفرض على مجال الزمن مختلف مظاهر الموارد. وهي تفعل ذلك، فإنها تضيف عناصر إلى مجال الزمن، وخلق فهم جديد للزمن⁸.

من أجل شرح هذا الجانب الإبداعي، كان من الضروري العثور على إضافة للاستعارة الملائمة للاستعارة التصورية. إننا بحاجة إلى طريقة للتفكير حول الاستعارات بحيث لا تقتصر على كونها مجرد ترابطات ولكن أيضا في إمكانية إضافة عناصر أخرى إلى المجال. تبعا لذلك اعتمد المؤلفان استعارة الإسقاط⁹، تأسيسا على صورة العرض الضوئي، بملاحظة أن المجال الهدف هو انزلاق مبتدأه العارض الضوئي. ويكون الإسقاط الاستعاري عبارة عن عملية إحلال الانزلاق من الأول للثاني، بإضافة بنية المصدر لذلك الهدف.

هذا الاستعارة للاستعارة تسمح لنا بوضع تصور لفكرة أن الاستعارات تمنح كيانات إضافية وعلاقات إلى المجال الهدف.

تسمح لنا استعارة الإسقاط أيضا بتفسير حقيقة أخرى. فقد تم من قبل اكتشاف أن الصور¹⁰ تملك بنية. مثلا، في عملية تخيل شخص يسير داخل غرفة، يتم تصور الغرفة على أنها وعاء. والمشي عبارة عن مسار للحركة يبدأ خارج الغرفة وينتهي داخلها. الأوعية والمسارات هي مخططات الصورة¹¹ بمعنى أنها مخططات ابتدائية لبنينة الصور الغنية. لقد اكتشف المؤلفان أن مخطط الصورة يبين المجال المصدر الذي يستخدم في عملية استنتاج المجال الهدف. وعلاوة على ذلك، وبملاحظة مئات من الحالات، وجد المؤلفان أن بنية مخطط الصورة واستنتاجات تخطيط الصورة يبدو أنها "تحفظ" أو تثبت بواسطة الاستعارات. أي أن المجال المصدر للأوعية (أمتعة مادية مثلا) يتم ربطها بالأوعية (أمتعة استعارية مثلا)، بحيث يربط الداخلي بالداخلي والخارجي

بالخارجي. وعندما تطبق الاستعارة التصورية على مخطط المسار، يتم ربط الهدف بالهدف والمصدر بالمصدر، وهكذا. وعليه فإننا نتحصل تحت استعارة الإسقاط على نتيجة فورية.

الاستعارة الابتدائية¹² والنظرية العصبية: ينتقل المؤلفان في هذه النقطة للحديث عن التطور الكبير الذي حصل لنظرية الاستعارة سنة 1997 مع الأفكار الأساسية لجوزيف جرادي Grady Joseph (1997) وكريسـتوفر جونسون Christopher Johnson (1997)، وسرينيفاس نارايانان Srinivas Narayanan (1997).

يذكر المؤلفان أنهما سبق وان وجدا حالات، مثل استعارة "الأكثر فوق"، التي تجسد تجربتنا في العالم، وتبدو أنها تمثل أساسا للاستعارات الأخرى. في "الأكثر فوق" مثلاً، نحن نجرب بانتظام حالة الزيادة في الارتفاع وتلازمها مع الزيادة في الكمية، كحال صب المزيد من الماء في زجاجة¹³.

وعلى الرغم من إغراء الحديث عن التأسيس الجسدي للاستعارات، إلا أن المؤلفين أثرا إيلاء معظم تركيزهما للاستعارات المعقدة من النوع الذي نوقش من قبل. وذكرنا أن (جرادي) بيّن أن الاستعارات المعقدة تنشأ من استعارات ابتدائية تتأسس مباشرة في تجاربنا اليومية وتربط تجربتنا الحسية- الحركية بمجال أحكامنا الذاتية. مثلاً، تتأسس لدينا الاستعارة التصورية الابتدائية "المحبة دفاء" لأن تجاربنا المبكرة مع المحبة تتوافق بشكل وثيق مع التجربة الفيزيائية للدفاء في أثناء العناق أو الاحتضان.

الأسس العصبية للفكر الاستعاري: يواصل المؤلفان في هذه النقطة التفسير العصبي للاستعارة كما يلي:

عندما نتخيل رؤية مشهد ما، يتم تنشيط قشرتنا البصرية. وعندما نتخيل تحريك أجسادنا، يتم تنشيط ما قبل القشرة الحركية والقشرة الحركية. وباختصار، بعض الأجزاء نفسها من أدمغتنا تنشط في عملية التخيل، كما هو الشأن مع الإدراك الحسي و الفعل أو العمل.

يقترح المؤلفان مصطلح "تسنيين"¹⁴ للتعبير عن دينامية وظائف الدماغ المشتركة سواء خلال الإدراك الحسي والنشاط خلال التخيل. إن التسنيين، حقيقيا كان أو تخيليا، هو عملية دينامية، أي أنه يحدث في الزمن الحقيقي. وتنشأ تصوراتنا الحسية-الحركية من التجارب الحسية والحركية (التجارب المتحركة في الفضاء أو المكان والإدراك الحسي، معالجة الأشياء). والتصورات المثبتة هي بناءات المعلومة العصبية التي تسمى عمليات التعليم العصبي¹⁵، التي يمكن أن توجه التسنيينات التخيلية عندما يتم تنشيطها.

كل هذا إذن يخالف استعارة الإسقاط القديمة. فالاستنتاجات الاستعارية عادة ما تكون منفذة بواسطة تسنيينات المجال المصدر. ونتائج استنتاجات المجال المصدر تنقل إلى المجال الهدف عن طريق صلات عصبية¹⁶. وعليه فاكتمال الاستعارات الجديدة ينطوي فقط على إنشاء صلات عصبية جديدة وليس بإنشاء نسخ من (معدات استنتاجية معقدة)¹⁷. وعدم وجود تمايزات يبدو ضروريا، بسبب أن: الاستعارات تُكتسب عند حدوث تجربتين في مرة واحدة. أما إذا كان الترابط الاستعاري من شأنه أن يؤدي إلى حصول التناقض في المجال الهدف، فإن الاستعارة لن تكتسب. التناقضات العصبية، هي إعاقات متبادلة¹⁸. فكل رابط مقترح من شأنه أن يؤدي إلى إحداث تناقض مع البنية المتأصلة للمجال الهدف سوف يعاق، ولذلك فإنها لن تكتسب أبدا.

وفي الأخير يرى المؤلفان أن تموقع نظرية الاستعارة ضمن النظرية العصبية اللغوية، يملك العديد من المزايا منها:

- إنها تمنحنا تفسيراً لطريقة تجسيد كيفية اكتساب الاستعارات الابتدائية: فالاستعارات الابتدائية الكلية تنشأ عن تجارب ابتدائية كلية.
- تمنحنا تفسيراً لوجود التفكير الاستعاري، ولماذا هو عاد ولا مفر منه : فالتنشيط العادي لمجالين اثنين ينتج من توظيف الروابط العصبية الحلقية نفسها.

- تتوافق الاستعارات بشكل طبيعي مع باقي ما في النظرية العصبية اللغوية.

- التسنين العصبي يوفر آلية لتمييز ديناميكية استخدام الاستعارة في السياق وفي الخطاب.

- بما أن النظرية العصبية اللغوية أصلها النماذج (أو القوالب) التحسينية المحددة¹⁹ ، فإن هناك تفسيرات تحسينية محددة لكيفية عمل الاستعارات بشكل دينامي.

الاستعارة والتسنين الدينامي²⁰ :

تسنين وإدماج²¹ : يرى المؤلفان أن النظرية العصبية اللغوية، مشروع بدأ سنة 1988 واستمر حتى اليوم. وعلى مدى ما يقرب من الفترة نفسها، طور جيل فوكونيي ومارك تيرنر Gilles Fauconnier - Mark Turner (2002) نظرية الفضاءات المدمجة²² ، وإن كانت مختلفة من حيث نطاقها وغرضها، إلا أنها تتداخل في نقاط مهمة من بعض الجوانب مع النظرية العصبية اللغوية.

إن نظرية الإدماج تعطي كل تسليم للثبات أو الدوام، أي البنية التصويرية الدائمة التي تستخدم في التسنين. بعبارة أخرى، فإنها تفترض أن جميع البنية التي دعوناها بعملية التعليم، تشمل الترابطات الاستعارية بين مجالات المصدر والهدف، فضلا عن مخططات الصورة وقوة ديناميكية المخططات والأطر²³ والطرزات البدئية²⁴ والترابطات الكنائية...

إن نظرية الاندماج (أو الامتزاج) هي معنية مركزيا باستخدام كل هذه البنية التصويرية العامة في أمثلة خاصة. أي أنها منشغلة بالاندماج التصوري²⁵: أي كيف نركب البنيات التصويرية لاستخدامها في حالات خاصة، لاسيما في الحالات التخيلية.

الفضاء المدمج هو الفضاء الذهني الذي يركب تخيليا عناصر تنتمي لما لا يقل عن فضاءين اثنين آخرين مبنيين من قبل نسقنا التصوري العادي الدائم²⁶.

تطبيقات نظرية الاستعارة : خصص المؤلفان هذه النقطة للحديث عن مجالات تطبيق نظرية الاستعارة، وذكرنا أنه خلال الخمسة والعشرين عاما منذ أن اكتشفا لأول مرة الاستعارة التصويرية، قدّم الباحثون تطبيقات مثيرة للنظرية في حقول متنوعة مثل النظرية الأدبية والدراسات القانونية واللسانيات وفلسفة العلوم. كما حددوا الاستعارات التصويرية في جوهر الشعر والقانون والسياسة وعلم النفس والفيزياء وعلوم الحاسوب والرياضيات والفلسفة. كشفت أبحاثهم كيف تبين الاستعارة طريقة تفكيرنا- و ما تمنحه الأفكار أيضا- في التخصصات الفكرية التالية :

- **في التحليل الأدبي:** أثبت لايفوف وتيرنر في عملهما المشترك More Than Cool Reason (1989)، أن الاستعارات في الشعر هي في جزء كبير منها، تمديدات وحالات خاصة من استعارات تصويرية عادية أو مألوفة وثابتة، مستخدمة في الفكر واللغة اليوميين. والابداع الاستعاري للشعراء يرد بهذه الطريقة من أجل تأليف لا يكون بابتكار جديد للتفكير الاستعاري بصفة كلية، ولكن في حشد الأشكال الموجودة سابقا للتفكير الاستعاري لتشكيل امتدادات جديدة وتأليفات من ترابطات استعارية سابقة أو معروفة.

- **في السياسة والقانون والقضايا الاجتماعية:** أهم تطبيق لنظرية الاستعارة التصويرية تم في مجالات القانون والسياسة والقضايا الاجتماعية. وقد كتب المنظر القانوني ستيفن وينتر Steven Winter بشمولية في مواد القانون المعدل وفي كتاب كبير اسمه A Clearing in the Forest (2001)، حول الدور المركزي للاستعارة في الحجاج القانوني. حيث تكثر الاستعارات القانونية، من استعارة "المؤسسة فرد" ، إلى استعارة "الملكية الحقيقية حزمة من الحقوق"، إلى الفهم الاستعاري المتطور للملكية الفكرية. كما يبين وينتر، أنه من الشائع بالنسبة للمحكمة العليا استخدام استعارات لتمديد المقولات القانونية المطورة في قرارات سابقة. وبالتالي أصبحت الاستعارة أداة قانونية قوية لها تأثيرات في مدار حياتنا الاجتماعية.

- **في علم النفس:** أثبت تحليل الاستعارة أهمية كل من علم النفس المعرفي والسريري. بعد أن هيمنت الفكرة القديمة على علم النفس المعرفي التي تقول إن التصورات كلها حرفية وليست متجسدة. لكن ما كتب حول نظرية الاستعارة قد وُقر أدلة دامغة ضد هذا الرأي، وفتح إمكانية للاهتمام بعلم النفس المعرفي أكبر بكثير، وهو إلى حد ما موجود بالفعل.

- **في الرياضيات:** إذا كان ميدان ما موصوفا بأنه حرفي وغير متجسد وموضوعي، فهو الرياضيات. على الرغم من ذلك فقد بين لايفوف ونونيز Nunez (2000) أن الرياضيات هي أيضا استعارية من البداية إلى النهاية.

- **في اللسانيات المعرفية:** تعد نظرية الاستعارة فرعا بديلا ومركزيا في مجال اللسانيات المعرفية، وهو يسعى إلى توفير الأسس التفسيرية للأنسقة التصويرية واللغوية في الدراسة العامة للدماغ والعقل. على هذا النحو، فإنه يستند ويسعى إلى إدماج عمل جديد في علم النفس المعرفي، وعلم الأعصاب المعرفي، وعلم النفس التطوري، لتشكيل صورة موحدة تستطيع أن تشرح العديد من المظاهر اللغوية بقدر الإمكان، من النحو إلى علم الدلالة إلى الخطاب. أن تطوير النظرية العصبية اللغوية يزال جاريا، سعيا لتقديم نظرية موحدة للفكر واللغة على أساس التحسيب العصبي (Regier 1996 ؛ نارايانان 1997؛ فيلدمان ولايفوف).

- **في الفلسفة:** يرى المؤلفان أن كتابهما "الاستعارات التي نحيا بها" بدأ جزئيا كمحاولة للرد على مزاعم مؤثرة حول الاستعارة أدلى، بها إثتان من الفلاسفة الرواد المعاصرين الأمريكيين، هما دونالد دافيدسون Donald Davidson، الذي ادعى أن الاستعارات لا معنى لها، وجون سيرل John Searle، الذين ادعى أن هناك مبادئ دلالية وذريعة تسمح بتعيين أحد المعاني الحرفية للجمال الاستعارية. وأدرك المؤلفان أن حججهما كانت تستند إلى الافتراضات المشتركة التي قيدت كلا من الفلسفة التحليلية في جميع أنحاء

التقليد الغربي، يعني أن التصورات كلها واعية وحرفية وغير متجسدة، أي ليست محسومة من قبل الجسم والدماغ.
الهوامش:

1 -George Lakoff and Mark Johnsen (2003) Metaphors we live by. London: The university of Chicago press.

2- جورج لاكوف ومارك جونسن: الاستعارات التي نحيا بها. ترجمة: عبد المجيد جحفة، ط 1 دار توبقال للنشر - الدار البيضاء، 1996.

3 -conceptual metaphor

4 -metaphorical mappings

5- الإشارة هنا إلى مؤلف آخر لهما صدر سنة 1999 بعنوان: Philosophy in the Flesh أو "الفلسفة في الجسد". وكل ما هو وارد بين قوسين على هذه الشاكلة هو عبارة عن أبحاث ودراسات للمؤلفين أو الآخرين.

6 -deep analysis

7 -Metaphors for Metaphor

8- يرى المؤلفان أن جزءا كبيرا من التحول الثقافي ينشأ من إدماج تصورات استعارية جديدة وفقدان أخرى قديمة. فمثلا، يعدّ ما يسمى تغريب الثقافات عبر العالم، في جزء منه، أمرا ناتجا عن إدماج استعارة "الزمن مال" في هذه الثقافات. يراجع: الاستعارات التي نحيا بها (1996)، ص: 150.

9 -Projection Metaphor

10 -images

11 -image-schemas كما يمكن ترجمتها بترسيمات الصورة

12 -Primary Metaphor

13- أي كلما زادت الكمية زاد الارتفاع. وهذا ما يسمح بتأسيس استعارة "الأكثر فوق" تجريبيا. ومن الأمثلة اللغوية لهذه الاستعارة التصورية يذكر المؤلفان: لم يتوقف عدد الكتب المطبوعة كل سنة عن الارتفاع، ارتفعت عائداتي في السنة الماضية،...، لقد نزلت أرباحه هذه السنة... يراجع: الاستعارات التي نحيا بها (1996)، ص 35.

14 -enactment

15 -neural parameterizations (أو المَعْلَمَة العصبية)

16 -neural links أو وصلات عصبية

17- هي الترجمة الحرفية لعبارة complex inferential machinery

-
- 18 -mutual inhibitions
 - 19 -explicit computational models
 - 20 -Metaphor and Dynamic Enactment
 - 21 -Enactment and Blending
 - 22 -blended spaces
 - 23 -frames
 - 24 -prototypes
 - 25 - conceptual integration

26- تراجع التفاصيل والأمثلة المقترحة في السابق:

Metaphors we live by (2003):PP 262.264